المُمارَسَةُ اللُّغَوِيَّةُ

(دراسة وصفيّة تحليليّة)

د. أسامة خالد محمّد حمّاد

أستاذ النّحْو والصرف المشارك في قسم اللّغة العربيّة

عميد كليّة الآداب

الجامعة الإسلاميّة بغزة _ فِلَسْطين

البريد الإلكتروني: uhammad@iugaza.edu.ps

الاستلام	2019/10/4	المراجعة	2019/10/15	النشر	2019/12/31

الملخص:

علم النحْو العربيّ سمة مهمّة وبارزة في حضارة الأمّة العربيّة وقوّتها وازدهارها، الذي يتعرّض الآنَ لمخاطر حقيقيّة تتهدّده، وأشدّ هذه المخاطر هو ترك الممارسة اللغويّة العمليّة، فقد ساهم البعد عن الممارسة العمليّة للغة العربيّة الفصحى في ميادينها الخاصّة في إضعافها وتشويه نحوها التليد، وفِقدان الإلْف المنشود للتفاعل معَ هذه اللغة الكريمة التي يجب امتلاك ناصيتها، إضافة إلى ما يؤدّيه ترك الممارسة العمليّة إلى نفور الناس من النحو، وتَخَيُّلِ الصعوبات الموهومة في طريقه، وإنْ كان هناك بعض الصعوبات الحقيقيّة التي تعترض طريق النهوض بالدرس النحويّ، فهي كغيرها من الصعوبات التي تعترض سبيل أيّ علم كريم، يستحقّ منّا بذل الجهد الملائم له؛ من أجل أنْ يرتقي بنا إلى مستقبل مشرق وواعد وكريم، وعلى رأس هذه الجهود جميعًا تأتي الممارسة العمليّة التطبيقيّة للغة العربيّة الفصحى بالدُّربة والمِران، فالنّحْو إنّما نشأ أصلًا من أجل تقويم الألسنة وضبطها بشكل عمليّ، فهو ليس علمًا نظريًّا فحسب، ولم يدع قطّ إلى الاقتصار على حفظ المتون والمصنّفات لمجرّد الحفظ والدراسة النظريّة، كما هو الحال المؤلم في أغلب محافلنا الدراسيّة، فالنحو علم وفنّ، ولا بدّ أنْ يستند إلى الممارسة الحقيقيّة والتطبيق العمليّ، ولا يمكن أنْ يفلح المرء في دراسة النّحْو العربيّ من دون الممارسة والدُّربة والمِران، وبذلك_ فقط_ نمضي بهذا النّحْو حراسةً ورعايةً، وقيامًا بلغتنا العربيّة الكريمة الغرّاء الغنّاء.

الكلمات المفتاحية :

اللغة العربيّة، الممارسة، الفنّ، الصعوبات، الوَهْم، الفصحى.

Language Practice

(An Analytical Descriptive Study)

Associate Professor of Arabic Linguistics
Dean of Faculty of Arts
Islamic University of Gaza, Palestine
Email: uhammad@iugaza.edu.ps

Received	4/10/2019	Revised	15/10/2019	Published	31/12/2019

Abstract:

Arabic grammar is an important and prominent feature of the Arab nation's civilization, strength and prosperity. It is now subject to real threats. The most serious of these dangers is the abandonment of practical linguistic practice. Such dimension has contributed to weakening and distorting the use of classical Arabic. Although there are some real difficulties in improving the study of grammar, it is like difficulties in studying other fields. Researchers need to ensure more efforts in order to elevate Arabic to a bright, promising and dignified future. At the head of all these efforts comes the practical usage of classical Arabic language by means of learning and practice. Arabic grammar is not merely a theoretic science, nor has it ever been called upon to limit the preservation of grammar literature and manuscripts to mere conservation and theoretical study- as is the case in most of our schools. Arabic grammar is a science and an art, and it must be based on real practice and practical application.

Key words:

Arabic language, practice, art, difficulties, illusion, classical Arabic.

المقدمة:

ليس من شكّ أنّ التراث النحويّ والصرفيّ الذي تركه أسلافنا نفيس وعظيم، وأنّ الجهد الهائل الذي بذلوه فيهما خلال الأزمان المتلاحقة جهد لم يُهيّأ للكثير من العلوم المختلفة في صورها القديمة والحديثة، ولا يقدر على احتمال بعضه حشود من الثرثارين العاجزين، الذين يوارون عجزهم وقصورهم بغمز النّحْو والصرف بغير حقّ، وطعن أئمّتهما الأفذاذ[1]، ولا شكّ أيضًا أنّ دورنا قد حان لنحفظ إرث أسلافنا وأركان عزّتنا في حاضرنا ومستقبلنا، ولا يجهل عاقل ما للنّحْو من دور في الحفاظ على هذا الإرث الهائل العظيم.

وللتنبيه على هذا الدور المهمّ وطبيعته وأولويّاته، نذهب في بحثنا هذا_ بعد التمهيد_ إلى المبحثين الآتيين:

(1) انظر: حسن، النّحو الوافي 3/1.

المبحث	العنوان	المطلب	العنوان
الأوّل	صعوبة النّحْو العربيّ بين الوهم والحقيقة	الأوّل	أوهام تعيق الدرس النحويّ.
		الثاني	الصعوبات والتحدّيات المفتعلة.
		الثالث	الصعوبات الفعليّة.
الثاني	ضرورة الممارسة العمليّة	الأوّل	خصوصيّة اللغة العربيّة.
		الثاني	طبيعة علم النّحْو.
		الثالث	أهميّة الدربة والمِران.

تمهيد

كلّ شيء يمضي في هذه الحياة بمقتضى سنن وأنظمة، ويحتكم إلى نسب دقيقة يؤدّي الانضباط معَها إلى نتائج سليمة، وأيّ خلط مآله التيه والفساد، واللغة_ أيّ لغة_ كسائر شئون هذه الحياة، تحتكم إلى نظم وسنن ونسب متوازنة، لا يجوز أنْ يتقدّم بعضها على بعض، ولا بدّ من إيفاء كلّ قضيّة من قضاياها النصيب الذي تستحقّه؛ حتى تؤتي أكلها كلّ حين، وفي كلّ عصر بما يتناسب معَ تاريخ هذه الأمّة، وحاضرها، ومستقبلها.

وإنّما نسلّط الضوء في هذا البحث على أمور مهمّة غاية في الأهمّيّة، أدّى إغفالها إلى تراجع مكانة اللغة العربيّة عند أجيال هذا العصر من أبناء الأمّة العربيّة، وبخاصّة في ترك الممارسة العمليّة التطبيقيّة لقواعد النحو العربيّ؛ الذي أدّى إلى ذلك التوهّم المريع لصعوبة النّحْو العربيّ، وانعدام الفقه لمكانة اللغة، والجفوة النكدة بين أبناء الأمّة ولغتهم، وأعتقد أنّ السبب الأهمّ هو انقطاع المتخصّصين في اللغة العربيّة عن ممارستها والتعامل بها في مظانّها الخاصّة، واقتصر تعلّم النّحْو على المستوى النظريّ البائس اليتيم، ولا يمكن أنْ يقوم المستوى النظريّ وحده بالمهمّة.

وإنّما ينبغي لكي نتعلّم النّحْو بصورة صحيحة وفعّالة أنْ نتكلّم باللغة العربيّة الفصحى ونمارسها، فإنّما وُجِدَ النّحْو مِنْ أجل هدف عظيم، وذلك الهدف هو ضبط اللسان باللغة العربيّة، وحماية الفصحى من الاندثار، **فأرانا_ الآن_ نفعل كلّ شيء إلّا الهدف الذي من أجله وُجِدَ علم النّحْو**. هذا ما نسعى إلى تسليط الضوء عليه في هذه الدراسة.

المبحث الأوّل

صعوبة النّحْو العربي بين الوهم والحقيقة

من الأدلّة على سهولة النّحْو أنّ الله I سهَّلَ لطالب اللغة العربيّة الفصحى طريقه بأكثر مِمّا يتوقّع الطالب نفسه، بدليل أنّ مَنْ أتقن العربيّة من غير أهلها يفوقون أبناءها في العدد والمستوى بما لا يُقاس، في القديم والحديث، حتّى إنّ كثيرًا من علماء العربيّة وأئمّة علوم الشريعة من غير العرب[1]، ورغم ذلك انتشر وهْمٌ كبير في صدور أبناء الأمّة العربيّة وأجيالها المتعاقبة يخيّل إليهم نفورًا

(1) انظر: سلطاني، أبحاث في اللغة 27.

من النحو، ويصوّره صعبًا يستحيل استيعابه والتعامل معَه، ولذا، فإنّنا نذهب في المطالب الثلاثة الآتية إلى تفنيد هذا الوهم البائس، والصعوبات المدّعاة.

المطلب الأوّل: أوهام تعيق الدرس النحْويّ

عَلِقَ الكثير من الأوهام بالعقل العربيّ المعاصر تجاه النّحْو العربيّ، ما شكَّلَتْ بعد ذلك عائقًا حقيقيًّا في طريق الدرس النّحْويّ، تمامًا كما علقت الأوهام بقدرة اللغة العربيّة على مواكبة العصر، كما أشار حافظ إبراهيم [الطويل]:

رجعـــــتُ لنفســــي فاتّهمـــــتُ حصــــاتي ... وناديـــــتُ قــــومي فاحتســــبتُ حيــــاتي

رمَـــــوني بعقـــــمٍ في الشــــبابِ وليتـــــني ... عقمـــــتُ فلــــم أجـــزعْ لقـــول عـــداتي

وســـــعتُ كتـــــابَ الله لفظًـــــا وغايــــةً ... ومــــا ضِـــقتُ عـــن آيٍ بـــهِ وعظـــاتِ

فكيـــف أضـــيقُ اليـــوم عـــن وصـــف آلـــةٍ ... وتنســــــيق أسمـــــــاء لمخترعـــــــاتِ؟

أنا البحــــرُ في أحشـــائه الـــدرّ كـــامنٌ ... فهـــل ســـألوا الغـــوّاص عـــن صـــدفاتي[1]

وعلى رأس هذه الأوهام جميعًا يقف الوهن والضعف والعجز الذي هو سمة المرحلة التي نكاد ننتهي منها بإذنه Ψ، فطالما اتُّهم النّحْو بالصعوبة، وليس ذلك إلّا بسبب الوهن والعجز، فكيف يقع منّا أنْ نقف هذا الموقف من النّحْو وهو من أرقى المعارف في تراثنا العربيّ[2]؟ بل ومن أروع أشكال الرياضة العقليّة، فضلًا عمّا يحمله هذا العلم الكريم من خصائص ومزايا وسمات أذهلت العدوَّ بله الصديق[3]. وربّما يُساعد على توضيح هذه الفكرة التي نريد الإشارة إليها تلك القصة الرمزية التي مفادها أنّ ثعلبًا أراد أنْ يتناول قطفًا من العنب، ولما لم يستطع الوصول إليه، أشاح بوجهه عنه قائلًا: لا بدّ أنّه حامضٌ[4]!!! فالقصور والضعف والوهن هي الأسباب الأهمّ وراء اتّهام النّحْو بالصعوبة والجمود، فهذا النّحْو العالي كأيّ مطلب سامٍ لا بدّ له من إنسان طموح، ولا يليق به العجزة من الناس.

ويغرب حقًّا هذا الاتّهام، لهذا النّحْو العظيم، فكأنّ من يتّهم النّحْو بالصعوبة كذلك الذي ينعت البستان الجميل الأخضر الريّان الغنّاء بالصعوبة، فكلمة (صعب) لا تستقيم هنا، وهو وصف يكاد لا يُفهم في هذا السياق، فهل تقتضي (السهولة) أنْ يخلو البستان من ألوان ثرائه وعناصر روعته وبهائه؟! وما المقصود إذن بالصعوبة؟! فالنّحْو علم ثريّ غنيّ خصب، وهذه أوصاف تستقيم وواقع حال اللغة، أمّا القول: النّحْو صعب، فليست تناسب واقع الحال، ولا تمتّ للحقيقة بصلة.

---

(1) انظر: الدسوقيّ، في الأدب الحديث 47/2 وحسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 360/2.

(2) انظر: الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة 258 وعبد التوّاب، فصول في فقه العربية 416، 417.

(3) انظر: الراجحيّ، التطبيق النحويّ 5، 6.

(4) في القصة ذلك المثل المشهور: أَعْجَزُ عَنِ الشَّيْءِ مِنَ الثَّعْلَبِ عَنِ العُنْقُودِ. انظر: العسكريّ، جمهرة الأمثال 76/2 والزمخشريّ، المستقصى في أمثال العرب 235/1.

وإذا كان البلد الصغير المحدود يكفيه الأفراد القلائل لبناء ما يمكن أنْ يُسمّى جيشًا، فإنّ البلد العظيم الكبير لا يناسبه إلا الجيش العظيم العرمرم، وكذلك الأمر بالنسبة للحكومات، فالحكومة الصغيرة تناسب البلد الصغير، والحكومة الكبيرة هي التي تناسب البلد العظيم، والنحو هو جيش اللغة العربيّة وحكومتها، فلأنّ اللغة العربيّة رأس اللغات قاطبة، وأشرفها وأقواها، ناسبها هذا العلم، أو قُلْ هذا الحارس الأمين، فهو الذي يعمل على ضبطها، وحمايتها والحفاظ عليها على مدى السنين، فهل سمعنا قطّ من يقول يومًا: إنّ جيش إمبراطورية ما كان (صعبًا)، أو إنَّ حكومة الدولة الكبرى كذا كانت (صعبة)؟!

ويمكننا القول أيضًا: إنَّ صعود الإنسان إلى القمر رائع أخّاذ باهر عظيم ممتع يأخذ بالألباب، كلّ هذه الأوصاف مناسبة، أمّا إذا سمعنا من يقول: إنّ الصعود إلى القمر (صعب)، فإنّنا سنعلم عندئذ أنّنا أمام مخلوق ضعيف عاجز لا يُشَرِّفُ أيّ أمّة أنْ يكون أحد أبنائها!!!

يقول أحد الحكماء العلماء: إنّ في خطوة واحدة يخطوها الإنسان من التعقيد الهائل ما يعجز علم الميكانيكا عن وضع معادلة لها، على الرغم من التقدّم الكبير الذي أحرزه هذا العلم أخيرًا، فهل يعقل أنْ نتّخذ هذا التعقيد حجّة لنقول: إنّ الناس لا يمشون لصعوبة المشي وتعذّر تطبيق ميكانيكيّته[1]؟!

فالمشكلة إذن في الإنسان، في وهمه ومغالطاته، وليست أبدًا في علم النّحْو، فكلّ ممتع يحتاج إلى همّة عالية وعزيمة ماضية، فمتى كان النجاح يتحقّق اعتباطًا، أو من دون أي ثمن؟! ولله درّ أبي القاسم الشابّيّ حيث غَنّى الأمّة بكلماته الخالدة [الكامل]:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةْ فلا بدّ أنْ يستجيبَ القدرْ

ولا بدّ لليلِ أنْ ينجلي ولا بدّ للقيدِ أنْ ينكسرْ

ومَنْ لا يُحِبَّ صعودَ الجبالِ يعشْ أَبَدَ الدهرِ بينَ الحُفَرْ

وممّا يُؤسف له أنّ هذا الاتّهام لم يقتصر على العامّة، بل إنَّ بعض من تصدّر يومًا للريادة والسيادة في محافل رعاية اللغة العربيّة وحراستها اتّهم اللغة العربيّة بالصعوبة، ومن هؤلاء عيسى إسكندر معلوف، وربّما كان من المفارقات أنْ يكون المعلوف عضوًا في مجمع اللّغة العربيّة، وهو الذي قال: "ما أحرى أهل بلادنا أنْ ينشطوا من عقالهم طالبين التحرّر من رقّ لغة صعبة المراس، قد استنزفت أوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة، وهي معَ ذلك لا توليهم نفعًا، بل أصبحت ثقلًا يؤخّرهم عن الجري في مضمار التمدّن، وحاجزًا يصدّهم عن النجاح"[2].

المطلب الثاني: الصعوبات والتحدّيات المفتعلة

من البداهة بمكان وجود صراع قديم جديد بين اللغات حول النفوذ والسيادة، فقوّة اللغة مؤشّر أساسيّ على الهيمنة والسيطرة والنفوذ، بل هي من أهمّ وسائلها، ولذلك نرى الدول تجتهد في نشر لغاتها بين الأمم، ولا تزال الدول الاستعماريّة تحافظ على روابط من البلدان التي زرعت فيها لغاتها، وتنفق الكثير من الأموال من أجل ذلك، لِما لهذا البقاء والدوام لهاتيك اللغات من

(1) انظر: الأنطاكيّ، دراسات في فقه اللغة 258.

(2) انظر: حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 363/2.

قدرة على إبقاء هذه البلدان رهن نفوذ الدول الاستعماريّة[1]، وما حِرْص مختلف الدول الكبرى في هذا العصر بالذات على مخاطبة البلدان الأخرى بإذاعات وفضائيّات ووسائل إعلام مختلفة إلّا مؤشّر على هذا الصراع والتدافع، ذلك الذي يلبسونه ألبسة مختلفة، ويعنونونه بعناوين شتّى.

وما من شكّ في أنّ اللغة العربيّة مستهدفة بشكل خاصّ من أعدائها، وما الدعوات المتكرّرة اليائسة إلى اعتماد اللهَجات العامّيّة إلّا وجه من أوجه الحرب عليها[2]، ولا نزال نذكر حافظًا وهو يقول:

أَيُطْـــــرِبُكُمْ مِـــــنْ جانِـــــبِ الْغَـــــرْبِ ناعِـــــبٌ يُنـــــادِي بِـــــوَأْدِي فِي رَبِيْـــــعِ حَيـــــاتِي[3]

ولهذا حارب الاستعمار اللغة العربيّة الفصحى، كأسوأ ما تكون الحرب، وبخاصّة الاستعمار الفرنسيّ الذي حاربها في شمال إفريقيا، وضيّق عليها أشدّ التضييق[4]، ولذا، فإنّنا ننظر إلى النّحْو في حراسته للغتنا العظيمة، نظرتنا إلى جنودنا الذين يحرسون الحدود في وجه الأعداء، فكما يحرس جيشنا حدودنا وحرماتنا، وطموحاتنا وآمالنا في عودة مقدّساتنا وبلادنا، فإنّ النّحْو يحرس هذه اللغة ويحفظها، بل هو صدى وعد الله بحفظ القرآن الكريم، إذ إنّ القرآن لا يمكن حفظه أبدًا من دون هذه اللغة. ولهذا افتعل أعداء الأمّة الكثير من الصعوبات من أجل يوهنوا من عزم أبناء الأمّة في الانتماء إلى لغتهم، ومن أشهر هذه الأكاذيب أنّهم ادَّعَوا أنّ استعمال اللهَجات أسهل من اللغة الفصحى[5]، وأنّ العربيّة الفصحى أصبحت عاجزة عن تأدية أغراضها الأدبيّة أو العلميّة[6].

وإنْ حضرت بعض الصعوبات في اللغة العربيّة الفصحى، حيث نسلّم بالحقيقيّ منها، فإنّ الصعوبات الحقيقيّة الفعليّة في اللغات الأخرى أكثر بكثير، فلو نظرنا إلى بعض اللغات الأخرى لرأينا من تعقيداتها ما يجعل العربيّة تبدو إزاءها غاية في السهولة[7]، فالكتابة_ مثلًا_ في اللغة العربيّة أيسر منها بكثير في اللغات الأخرى، إذ إنّ مطابقة الصوت المسموع للصورة المقروءة في اللغة العربيّة أوضح منها في اللغتين الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، ففيهما تسقط من النطق عدّة أحرف من أواخر الكلمات في كثير من الأحيان، والإنجليزيّ يرسم الياء في ستّ صور، وهي: (y – e – ie – ei – ea – ee)، بينما في اللغة العربيّة تُكتب في صورة واحدة، وهي الياء المعروفة، وحرف الكاف الذي لا يُكتب في اللغة العربيّة إلّا كافًا واحدة، يُكتب في اللغة الإنجليزيّة في صور عدّة، وهي: (c – ch – ck – k – q)، وغير ذلك من الحروف، فكيف يُقال بعد ذلك: إنّ اللغة العربيّة معقّدة، نحوًا أو كتابة؟! ويكفي أنْ نشير إلى أنّ أكثر من يتّهم اللغة العربيّة الفصحى بالصعوبة، يتقنون لغتين أو أكثر من هذه اللغات الأجنبيّة المعقّدة، يقيمونها ويجلون أنْ يخطئوا فيها، في الوقت الذي لا يخجلون أنْ يخطئوا في العربيّة الفصحى، بل ربّما فاخروا بجهلهم بها[8].

(1) انظر: الدسوقي، في الأدب الحديث 10/2_ 15.

(2) انظر: الدسوقي، في الأدب الحديث 40/2_ 50.

(3) انظر: الدسوقي، في الأدب الحديث 48/2.

(4) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 364/2، 365.

(5) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 363/2.

(6) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 371/2

(7) انظر: الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة 258.

(8) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 366/2، 367.

وربّما تُثار زوبعة الصعوبات حول اللغة العربيّة الفصحى من خلال إسناد اللغات العامّيّة، والدعوة إلى أنْ تحلّ محَلّ الفصحى، وهو أمر اجتهد المستشرقون وتلامذتهم من أجله طويلًا، ولم يفلحوا، ولن يفلحوا، مع أنّنا نؤكّد على أنّ اللغات العامّيّة سنّة من سنن الله[1]، وليست تخلو أمّة من الأمم من الثنائيّة اللغويّة[2]، ولكنّ العامّيّة لها أهميّتها وضرورتها وظروفها، وللفصحى رسالتها ومكانتها[3].

إنَّ الفصحى لها ميادينها، وللعامّيّة ميادينها الخاصّة بها، فللفصحى منابرها من المساجد، وحلق العلم في بيوت الله، وقاعات الدرس في جامعاتنا، ومدارسنا، ومراكزنا الثقافيّة، ولها صحفنا، ومجلّاتنا، ومنشوراتنا، وإذاعاتنا، وفضائيّاتنا، ومواقعنا الإعلاميّة، ولها كتبنا، ومصنّفاتنا، ومقالاتنا، وأدبنا الرفيع. وللعاميّة بيوتنا معَ أهلينا، ومناسباتنا الاجتماعيّة، ومجالس سمرنا، وساحات أنسنا، ونزهاتنا، وأماكن فسحاتنا، وبين أحبّتنا، وأقاربنا، ومعَ أصدقائنا، وبين جيراننا، ولها شوارعنا، وأسواقنا.

إنَّه لا يجوز أنْ يُنكر دور أيٍّ من اللغتين، فالفصحى لا يمكن أنْ تسدّ مسدّ العامّيّة، وذلك لأسباب غاية في البساطة، أهمّها أنّنا لا يمكن أنْ ننهض بالناس كلّهم ليتقنوا اللغة الفصحى من جديد، ولو كان ذلك ممكنًا، لاستطاع ذلك العلماءُ النحاة الجهابذة في ظلال الخلافة الإسلاميّة الماجدة، فأولئك الكرام لم يستطيعوا رغم جهودهم الهائلة أنْ يحفظوا ألسنة العرب على فصاحتها، وقد كانوا أفصح الناس، فحيث لم يمكن أنْ يظلّ اللسان العربيّ منضبطًا بالفصحى في ظلال تلك الجهود الجبّارة، كان إعادته إلى الانضباط بها مستحيلًا من باب أولى.

وهكذا، فنحن مطمئنّون إلى بقاء اللغة العربيّة الفصحى، من دون أنْ تطغى عليها العامّيّة، حيث تمضي في أداء رسالتها الدينيّة والحضاريّة والإنسانيّة، في ميادينها الخاصّة، وليس من المطلوب أنْ يرتقي المجتمع كلّه إلى لغة العلم والتأليف والأدب، فالإنجليز_ أيضًا_ يكتبون بلغة لا يفهمها عامّتهم، فالعامّيّ الإنجليزيّ لا يفهم ما كتبه سبِنْسَر في فلسفة العمران، والعامّيّ الفرنسيّ لا يفهم أبحاث رينان في فلسفة التاريخ، والعامّيّ من الألمان لا يفهم ما كتبه شوبنْهَوَر في فلسفة الوجود[4].

المطلب الثالث: الصعوبات الفعليّة

لا يغرب أنْ يكون هناك أثمان تبذل لأجل الدرس اللغويّ، ولكنّ هذه الأثمان والتعب وبذل الجهد أمر طبَعِيّ إزاء تحقيق الأهداف، ومن أجل الإبداع في الحياة وإحراز الازدهار، وليس هناك شيء من دون ثمن، ولذلك لا تخلو محطّات الدرس اللغويّ من صعوبات فعليّة، ويمكننا أنْ نشير إلى شيء من الصعوبات الحقيقيّة في البنود الآتية:

1. قَطْعُ النّحْو عن جذوره في الدرس النحويّ، ما أدّى إلى أنْ يجفّ النّحْو في حلوق الناس، تمامًا كما تجفّ الشجرة عند فصلها عن جذرها، ولو ربط المدرسون النّحْو بمراحل نشأته الأولى لتغيّر واقع الدرس النحويّ بما لا يقاس، فقصّة نشأة النّحْو من الأهمّيّة بمكان، فمثلًا، لو عرف دارس النّحْو أنّ أصل الضمّة التي تكون علامة على الرفع هو ضمّة الفمّ؛ لهيّأ ذلك لكثير من التفاعل معَ الدرس النحويّ!!!

(1) هناك بحث خاصٌّ لي محكّم ومنشور بعنوان اللغات العامّيّة في الميزان.

(2) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّة 282.

(3) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّة 259.

(4) انظر: حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 374.

2. إسناد الأمر لغير أهله، من أولئك الذين عادَوا ماضيهم وحضارتهم، نحو أحمد لطفي السيّد الذي دعا إلى تمصير اللغة، ومن أقواله العجيبة: (إنّ اللغة العربيّة الفصحى تُبعثر وطنيّتنا المصريّة، وتجعلها شائعة في القوميّة العربيّة، فالمتعمّق في اللغة الفصحى يُشْرَبُ روح العرب، ويُعجب بأبطال بغداد، بدلًا من أنْ يُشْربَ الروح المصريّة)، ومن العجيب أنْ يصبح هذا الرجل بعد ذلك رئيسًا لمجمع اللغة العربيّة[1].
3. غياب الاحتفال بالنّحْو من خلال أنشطة منهجيّة، أو لا منهجيّة، لتفعيل عملية الدعم للنّحْو والتفاعل معَه، وذلك إزاء شباب الأمّة الإسلاميّة الصاعد ونخبها المختلفة، فهو يستحقّ منّا الكثير!!!
4. الاستسلام الساذج لوهم صعوبة النّحْو، بل وتكريسه من جهة الكثيرين من النخب، حتى أضحى وكأنّه حقيقة من الحقائق، ومُسَلَّمَة من البدهيّات.
5. انبهار ناشئتنا بلغات الآخرين، واستصغارهم لشأن لغتنا بفعل تأخّر أمّتنا الراهن عن ركب التقدّم المدنيّ والعلميّ والصناعيّ.
6. الذَّهاب باللغة العربيّة مذاهب غريبة عن طبيعتها، في كثير من المطبوعات المعاصرة، وبخاصّة في المؤسّسات الحكوميّة، والعامّة، نحو هاتيك المطبوعات الجاهزة التي تُحَضَّرُ لمخاطبة كلّ من المذكّر والمؤنّث، مثل: الأخ/ت: ـــ أجب/ي
وهو أسلوب كريه يعجب المرء لانتشاره في أمّة تمتلك هذه اللغة الرائعة الرائقة التي لا تحتاج لمثل هذه الأشكال الساذجة الركيكة!!! فضلًا عن خطئها البادي، فلا هي صحيحة في الشكل والمبنى، ولا هي وافية بالدلالة والظلال والمعنى!!!
7. ضعف مدرّسي اللغة العربيّة بشكل عامّ عن إيصال النّحْو بالطريقة المناسبة، ولذلك لضعف في محصولهم العلميّ، ولركاكة طرائقهم التعليميّة.

وربّما نصيب كبد الحقيقة عندما نخلص إلى القول: إنّ العقبة الكأداء تتمثّل في الاقتصار على العناية النظريّة بعلم النحو، والإقلال من بذل الجهد العمليّ التطبيقي والممارسة الفعليّة للغة من أجل إتقان الفصحى[2]، وبخاصّة عدم إلقاء مدرسي اللغة العربية لدروسهم ومحاضراتهم باللغة الفصيحة في غرفة التدريس وقاعة المحاضرة، وذلك في مختلِف المراحل التعليميّة، سواء المدرسيّة منها أو الجامعيّة؛ وقد عزّز ذلك شعور الدارسين من الطلبة بصعوبة الدرس النحويّ، فلو كانت اللغة سهلة، والنحو ممكنًا لما خاطبهم المدرّسون طيلة المحاضرة باللغة العاميّة، وهذا يتسلّل إلى أذهان الطلبة وتصوّراتهم من دون استئذان، ويندسّ إليهم بلا وعي، وبذلك تبذر هذه البذرة في تصوّراتهم، وتكبَر معَ الأيّام!!!

وهذا ما سنفصّل الحديث عنه في المبحث التالي بإذنه تعالى.

المبحث الثاني

ضرورة الممارسة العمليّة

لا بدّ من الالتفات إلى دور أيّة لغة في البناء الحضاريّ لأيّة أمّة، فلو نظرنا ـــ مثلًا ـــ إلى هذه التجرِبة المعاصرة التي قام بها الصهاينة، في أثناء فرض كيانهم على أرض فِلَسْطيْن، فقد نجحوا في إحياء لغتهم الميتة، وجعلها لغة للأدب والحياة[3]، وكان إحياء

(1) انظر: حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 371/2.

(2) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّ 257.

(3) انظر: نولدكه، اللغات الساميّة 8، 38 وحسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 365/2.

اللغة العبريّة من أهمّ أركان مشروعهم، بل من أهمّ أسباب ولادته وبروزه على قيد الحياة[1]، فليس يصلح مشروع أمّة_ أبدًا_ من دون لغة تجمعهم وتوحّدهم، وهذا ما التفتوا إليه.

واللغة العربيّة أولى اللغات قاطبة بجهودٍ تليق بها، وجدّيّةٍ في الاعتناء بها والقيام بحقّها علينا، بعيدًا عن السطحيّة والشكليّة في التعاطي معَها، وبخاصّة أنّها لغة الإسلام والحضارة، وهي اللغة الوحيدة الباقية الخالدة، في الوقت الذي تتبدّل وتتغيّر فيه اللغات كافّة، وما ذلك إلّا بفضل القرآن الكريم الذي كان السبب في بقاء هذه اللغة وخلودها. ونذهب في المطالب الثلاثة الآتية إلى الحديث عن هذه اللغة وشروط الارتقاء بها، ونركّز في هذا المبحث على المنحى العمليّ التطبيقي، الذي يروق لي أنْ أَصِفَهُ بذروة سنام الدرس النحْوِيّ.

المطلب الأوّل: خصوصيّة اللغة العربيّة

اللغة_ أيّة لغة_ كالكائن الحيّ، تخضع لسنّة الله في أيّ كائن حيّ، فاللغة تولد ثمّ تنمو شيئًا فشيئًا، وتشبّ وتقوى، ثمّ تتحوّل إلى مرحلة الضعف، حتّى تشيخ وتموت، وتخضع اللغة العربيّة لِما تخضع له سائر اللغات[2]، والدليل على ذلك أنّها لم تظلّ حاضرة حضورًا فطريًّا سليقيًّا على ألسنة العرب، فذهبت ألسنتهم وَفْق سنّة الله فيها مذاهب شتّى في لهَجاتها العامّيّة، وبقيت الفصحى محفوظة على مستويات خاصّة، على مستوى الدين والعلم والفكر والأدب؛ وذلك أنَّ ربّ العزة تعهّد بحفظ القرآن الكريم بقوله Ψ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، والذي يَعني بالضرورة التعهّد بحفظ اللغة العربيّة، إذ إنّها وعاء القرآن الكريم، فلا حفظ لهذا القرآن العربيّ[3]، الذي أنزل على النبيّ العربيّ ρ، في جزء عزيز من الوطن العربيّ، من دون اللغة العربيّة.

ولذلك، فقد امتدّ عُمُر هذه اللغة الكريمة حتى تجاوز خمس المائة والألف عام، وهو ما لم يتيسّر لأيّة لغة أخرى، فكلّ اللغات الأخرى تغيّرت وتبدّلت؛ إلى الدرجة التي ربّما يصعب فيها الربط_ أحيانًا_ بين الجديدة والقديمة، أو قُلْ: بين اللغة الأم وهاتيك اللغة المتولّدة عنها.

وهكذا، فالعربيّ لا يزال متّصلًا بتراثه وميراث أسلافه اتّصالًا وثيقًا، بعكس الآخرين الذين انقطعوا عن تراث أسلافهم تمامًا بفعل تبدّل لغاتهم وتغيّرها، ما أدّى إلى شيء من الغيرة من اللغة العربيّة ومن تراثها الزاخر، بل ربّما وصل إلى الحنق أيضًا! فذهب هؤلاء الآخرون، وعلى رأسهم الأوربّيّون إلى محاولات شتّى لزعزعة مواطن القوّة والبقاء في اللغة العربيّة، وبألوان وصور متعدّدة؛ فجاءت دعوة أحدهم إلى كتابة العلوم باللّغة التي يتكلّمها الناس في حياتهم العامّة، ثمّ هاجت هذه المسألة مرّة أخرى عام 1902م على يد (وِلْمور) الإنجليزيّ، أحد قضاة محكمة الاستئناف المصريّة، عندما ألّف كتابًا عمّا سمّاه لغة القاهرة، وضع لها فيه قواعد، واقترح اتّخاذها لغة للعلم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينيّة، ثمّ ثارت المسألة من جديد عام 1926م، على يد إنجليزيّ_ أيضًا_ هو (السير وِلْيَمْ وِلْكوكس)، وهو مهندس للريّ كان يعمل في مصر، وذلك عندما دعا إلى هجر اللّغة العربيّة الفصحى، وقد نهض من أبواق الاستعمار من يمجّد دعوة هذا الإنجليزيّ، مثل أحمد لطفي السيّد وسلامة موسى وعيسى إسكندر المعلوف[4]، وانتشرت من بعدُ مثل هذه الدعوات[1]، أو غيرها ككتابة العربيّة بالأحرف اللاتينيّة[2]. وقد ظهرت تلك الدعوات

(1) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 365/2.

(2) انظر: زيدان، اللغة العربيّة كائن حيّ 8، 9.

: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2]. وانظر كذلك: [الرعد:37] و[طه:113] و[الزمر:28] و[فصلت:3] و[الشورى:7] و[الزخرف:3] و[الأحقاف:12] I(3) ورد هذا الوصف للقرآن في قوله

(4) انظر: جريشة والزيبق، أساليب الغزو الفكريّ للعالم الإسلاميّ 22_24.

المغلوطة، معَ أنَّ اللغة العربيّة أسهل، فلو قارنّا اللغة العربيّة باللغات الأوربّيّة الحيّة، لرأينا أنّ الشاذّ فيها أكثر بكثير منها في العربيّة، في صيغ الأفعال وصيغ الجمع والتأنيث والمصادر، والشواهد عليه لا تُحصى، ولهذا القضايا مباحث أخرى، لا يتّسع لها صدر هذا البحث.

المطلب الثاني: طبيعة علم النّحْو

النّحْو أسبق العلوم اللغويّة، كما هو معلوم، وقد أفضى_ ولا يزال_ إلى فضاءات دراسيّة وبحثيّة أوسع من تلك التي أفضى إليها غيره من العلوم اللغويّة[3]، فهو دِعامة العلوم العربيّة كافّة، وقانونها الأسمى؛ منه تستمدّ العون، وتستلهم القصد، وترجع إليه في جليل مسائلها، وفروع تشريعها، ولن تجد علمًا منها يستقلّ عن علم النّحْو، أو يستغني عن معونته، أو يسير بغير نوره وهداه[4]. فللنّحْو الفضل الأكبر في مَهمّة الحفاظ على نظام اللغة وبقائه وحراسته، ويمكننا أنْ نلمس هذا الأمر على طول تاريخنا العربيّ والإسلاميّ، وها هو الأصمعيّ يقول: إنّ أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النّحْو؛ أنْ يدخل في جملة قول النبيّ ρ: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ"[5]، إلى غير ذلك الكثير مِمّا يدلّل على عظيم مكانة النّحْو وبالغ أهمّيّته. ومِمّا يلطف بنا أنْ نشير إليه ما بلغته مكانة ضبط اللغة عند العرب، فقد روي أنّ أعرابيًّا استغرب أنْ يربح التجّار الذين يلحنون[6].

وهكذا، فالنّحْو من أهم أركان نهوض الأمّة، واستقرار ذلك النهوض من بعد ذلك، فهو حارس القرآن، الذي لا عزّة للأمّة من دونه، وإذا كنّا قد انتبهنا إلى ضرورة هذا العلم للقرآن الكريم، الذي لا حياة لهذه الأمّة دونه، فإنّنا نستطيع أنْ نقرر وَفْقَ ذلك أنّه لا عزّة للأمّة ولا بقاء لها أمّة من دون النّحْو؛ إذ إنّه لا إسلام من دون اللغة العربيّة، والنّحْو هو من حرس اللغة على مدار أربعة عشر قرنًا، وهذه القرون أصدق شهادة لصلاحية علم النّحْو[7].

ولكنّه من المهمّ أنْ يلتفت الدارسون إلى طبيعة علم النّحْو، ذلك العلم الذي نشأ أساسًا لمهمّة جليلة، لا يجوز إطلاقًا أنْ يُغفل عنها، هذه المهمّة التي يلخصّها حديث النبيّ ρ: "أَرْشِدُوْا أَخاكُمْ فَقَدْ ضَلَّ"[8]، ويعزّزها قول عمر بن الخطّاب τ إذ مرّ على قوم يسيئون الرمي، فغضب وقرّعهم، فقالوا: إنّا قوم متعلّمين، فاشتدّ غضبه وقال: والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليَّ من خطئكم في رميكم، فنجد عمر بن الخطاب τ يعلن عن حزنه من لحن بعض المسلمين، ويعدّ ذلك اللحن أسوأ من الضعف في الرمي[9]، رغم ما للرمي من أهمّيّة ومكانة[10].

---

(1) انظر: حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 360/2_382.

(2) انظر: عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة 15.

(3) انظر: أبو المكارم، تاريخ النّحْو العربيّ 11، 12.

(4) انظر: حسن، النّحْو الوافي 1/1.

(5) انظر: صحيح ابن حِبّان (رقم 5436) 252/12 والحميديّ، الجمع بين الصحيحين (رقم 2915) 318/3 وانظر_ أيضًا: القاضي عِياض، الإلماع 184 والحجّاج المزي، تهذيب الكمال 388/18 والسيوطي، تدريب الراوي 106/2.

(6) يُروى أنَّ أعرابيًّا دخل السوق، فسمعهم يلحنون، فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح. انظر: زهران، مقدمة في علوم اللغة 30.

(7) انظر: حسين، الاتجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر 375.

(8) انظر: الحاكم، المستدرك على الصحيحين (رقم 3643) 477/2.

(9) انظر: السامرّائيّ، المفيد في المدارس النحويّة 16.

(10) انظر: صحيح ابن حِبّان (رقم 4709) 7/11 وسنن البيهقي الكبرى (رقم 19511) 13/10 والحميديّ، الجمع بين الصحيحين (رقم 2994 351/3.

ولا بدّ أنْ ننبّه إلى أنَّ التعامل معَ النّحْو قد انحرف عن طبيعته، وذلك بقصره على المستوى النظريّ، وإغفال طبيعة اللغة التي لا يمكن أنْ تستغني عن الكفاية في التطبيق والممارسة، ويروق لي أنْ أقيس الأمر أو أذكّر_ هنا_ بانحراف الناس عن الغرض من خلقهم، فقد خلق الله الناس ليعبدوه، ويبيّن ذلك قوله I: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، ولكنّ القليل من الناس من استجاب لذلك، ويؤكّد ذلك قوله I: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103]، والحقّ أنّ قلّة من استجاب لأمر الله بعبادته لا يغيّر من حقيقة الهدف الذي خُلِقَ الناس من أجله. وربّما تشبه هذه الحالة ما حصل معَ النّحْو.

فقد انحرف المشتغلون بعلم النّحْو عن رسالته الحقيقيّة، فقد ظهر النّحْو من أجل أنْ يضبط الناس ألسنتهم في ظلاله، وليس هناك هدف جوهريّ سوى هذا الهدف، ولكنّ قلّةً من المشتغلين باللغة والنّحْو استجابوا لهذا الهدف، فالواقع المرير يشير إلى أنّ المشتغلين بالنحو يذهبون به مذاهب نظريّة، غير مكترثين بالمنحى التطبيقيّ العمليّ، ويكفي أنْ نلقي نظرة سريعة على مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا لكي نرى كيف يدرّس النحو بالعامّيّة. وهذا لا يغيّر من حقيقة أنّ النحو ما ظهر إلّا من أجل أنْ يضبط المتحدّثون باللغة الفصحى كلامهم، فما نشأ النّحْو إلّا من أجل أنْ نضبط ألسنتنا، لا أنْ يقتصر كما هو الحال في عصرنا الحاليّ على المستوى الكتابيّ[1].

تتنوّع المعارف الإنسانيّة فيما بين العلوم والفنون، وكلّ منهما قد يحتوي على شيء من الآخر، ولو بنسبة قليلة ضئيلة، وتتدرّج المعارف فيما بينهما، قربًا أو بعدًا من طبيعة العلم وطبيعة الفنّ، فمنها ما هو أقرب جدًّا إلى العلوم، إلى سمت العلم وخصائصه وطبيعته، ولا يشتمل إلّا على القليل من الفنّ، نحو علم الفيزياء_ مثلًا، ومنها ما هو بعكس ذلك، إذ هي أقرب جدًّا إلى الفنّ، وطبيعته وخصائصه، ولا يشتمل إلّا على القليل من السمت العلميّ، نحو فنّ الرسم. وطبيعة الفنّ تقتضي أسلوبًا في تدريسه يختلف عن أسلوب تدريس العلم، فإذا كان من الطبعيّ أنْ يغلب السمت العلميّ النظريّ على تدريس الفيزياء، فلا بدّ أنْ يتّسم تعليم الرسم على الطابع التدريبيّ معَ الممارسة والمحاولة والدُّرْبَة والمِران، فلا يُعقل_ مثلًا_ أنْ تُدرّب كرة القدم على مقاعد دراسيّة في الجامعات، فلا بدّ أنْ ينزل المدرّب معَ اللاعبين إلى الملعب، ولا بدّ أنْ يركل الكرة أمامهم، ولا بدّ_ في الملعب_ أنْ يتدرّبوا على الجري والمطاردة والمناورة، وفنون التخلّص من الفريق الآخر، ومهارات السيطرة على الكرة وانتزاعها من الآخرين، ولا يكون ذلك كلّه، ولا يمكن أنْ يكون إلّا في الملعب..

المحاولة والدربة والمِران من أهمّ سمات الدرس النحْويّ الناجح والفعّال، وهذا ما سنفصّل الحديث عنه في المطلب الآتي:

المطلب الثالث: أهمّيّة الدُّربة والمِران

تقتضي طبيعة النحْو الاحتفال بالمنحى العمليّ التطبيقيّ، ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنّ أهمّ أسباب نفور طلبة العلم من النحو هو التعامل معَه بصورة لا تتّفق معَ طبيعته، فالنحو عمل وفنّ، إنّما نتعلّم النّحْو لكي نتقن الحديث بالفصحى في ظلاله، ولا فائدة منه إذا لم يثمر هذا الإتقان، فالمطلوب أنْ نضبط به لغتنا، ونعدّل به ألسنتنا، وهذا من البدهيّات التي لا تحتاج إلى تأكيد أو زيادة إيضاح، أو كثير بيان، وليس كما نرى في بعض المواطن، حيث أصبح النحْو وكأنّه لا علاقة له باللغة، ينظر إليه الناظر فيضيق به ذرعا؛ فلا تدخل في سلوكه اللغويّ[2].

(1) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّ 262.

(2) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّ 257.

فما فائدة أنْ يحفظ الطالب القواعد كلّها إذا لم تثمر تلك المحفوظات إتقانًا عمليًّا فعليًّا للغة الفصحى، فالنحْو وسيلة لغاية نبيلة، فكيف تُنسى الغاية، وتصبح الوسيلة غاية، وقد مرّ وقت طويل أتقن فيه العرب اللغة العربيّة من دون حاجة إلى علم النحْو، ولا بدّ أنْ يظلّ الهدف هو الإتقان، وقد بلغ من أهمّيّة الإتقان أنْ يقول أبو بكرτ: "لَأَنْ أقرأَ فأسقطَ أحبُّ إليّ منْ أنْ أقرأَ فألحنَ"[1]، فهل يُعقل أنْ نتعلّم أحكام اللغة وقواعدها، ثمّ نظلّ بعيدين عن الانضباط بها، أليس هذا هو العجب العجاب؟؟؟

هل يعقل أنْ نتعلّم أحكام التلاوة ولا نتلو القرآن كما ينبغي، وإذن فلماذا نتعلّمها؟! هل يُعقل أنْ نتعلّم أحكام الصلاة وشروطها وأركانها ثمّ لا نصلّي، ولماذا العلم بها أصلًا؟! فلماذا لا نلتزم بهذه البدهيّات، وما العائق العجيب الذي يمنعنا من أنْ نكون طبيعيّين في تعاملنا معَ هذا العلم، كما هي سنن الله في خلقه؟! فلا حاجة بنا إلى إرهاق أنفسنا في الحفظ والمراجعة والدراسة لعلم النّحْو إذا كنّا لا نستفيد من ذلك كلّه، أم أنّنا ندرس أحكام النّحْو وقواعده لكي نصنّف المصنّفات ونتقدّم للامتحانات، أم نحن ندرسها لكي نتسلّى بها فقط؟ أم نحن ندرسها لكي نفوز في المسابقات؟ أم ندرسها ولسنا ندري لماذا؟! أم أنّنا ندرسها لكي نحفظ علم النّحْو من الاندثار، وليس حفظ اللغة من الاندثار؟ وهذا أمر مضحك؛ لأنّ علم النّحْو إنّما هو وسيلة، ولا تصبح الوسيلة غاية، إلّا عند المتأخّرين بين الأمم، معَ أنّه لا يمكن حفظ النّحْو إذا لم نحفظ اللغة، فهي الأساس والغاية، وعدم ممارسة اللغة العربيّة الفصحى هو ما دفع بعض الحانقين على اللغة العربيّة والكارهين لها أنْ يدّعوا أنّها لغة ميتة[2].

كما أسلفنا، اللغة فيها من الفنّ الكثير، فهي أقرب إلى الوسط فيما بين حدّ العلم وحدّ الفنّ، وبالتالي، لا يمكن أبدًا أنْ يُقتصر على الجانب النظريّ في التعامل معَها، ولا بدّ من الممارسة فيها والتطبيق، ولا يصحّ النحو ولا يستقيم في الأذهان إلّا معَ التطبيق، **فالنحو ما وقر في الذهن وصدَّقه اللسان**، وقد استوحيتُ هذا الكلام من حديث النبيّ ρ: "إنَّ الإيمانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي، وَلا بِالتَّمَنِّي، إنَّ الإيمانَ ما وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ"[3].

نعم، النّحو ما وقر في الذهن وصدَّقه اللسان، ويكون ذلك التصديق بالتطبيق والممارسة، التي تحتاج إلى الدُّرْبَة والمِران، فكما أنّنا لا نصدّق تارك الصلاة الذي يدّعي مزيد الإيمان، وهو زعم يُسمع من بعض الناس، كأنْ يقول أحدهم: (صحيح أنّي لا أصلّي، ولكنّ قلبي أبيض، وعندي دين أكثر من النّاس كلّهم، ومن المصلّين أجمعين)، إذ إنّ المؤمن الحقّ هو الذي يُصدِّق إيمانه بالصلاة وغيرها من شرائع الإسلام، فكذلك أيّ زعم بامتلاك ناصية النحو، أو زعم القدرة أو إمكان تعلّم النحو من دون تطبيق كزعم تارك الصلاة تمامًا.

وحاجة دارس النحو إلى الدُّرْبَة والمِران لا تخفى، ولا يمكن أنْ تُمتلك لغة من دون ممارسة أبدًا، وهذا أمر لا ينكره أحد، فلا بدّ انسجامًا معَ هذا كلّه أنْ تدرّس اللغة_ أيّة لغة_ معَ الدربة والمِران والمحاولة والممارسة، وانظر إلى طلبة العلم وغير طلبة العلم كيف يحسنون لغة البلاد الأجنبيّة التي يسافرون إليها في وقت قياسيّ، وذلك بسبب الممارسة بالدرجة الأولى والأهمّ، ونحن نرى أبناءنا يخضعون لدراسة اللغة الإنجليزيّة_ مثلًا_ سنوات عديدة، ولا يحسنونها إلّا بأقل القليل، حتّى إذا ذهب بعضهم إلى بلاد الإنجليز عاد بأحسن الأداء، والأمر لم يزد عن الممارسة والدربة والمِران، التي سنحت له هناك، ولم تسنح له في البيئة الدراسيّة المحليّة البعيدة عن حياض اللغة الإنجليزيّة.

(1) المزهر، للسيوطي 341/2.

(2) انظر: الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر365/2، 366.

(3) انظر: قوت القلوب 210/1 والدرّ المنثور 695/2.

والأمر نفسه ينسحب على اللغة العربيّة الفصحى، فهي لغة ثانية إلى حدٍّ ما، حيث تختلف في كثير من أحكامها عن اللغة العامّيّة، فلا بدّ من ممارستها لامتلاك ناصيتها، والتمكّن من أحكامها، فنحن نظلم اللغة العربيّة الفصحى، ونظلم طلبتها عندما لا نُسمِعُهم اللغة الفصحى حيَّةً خلابةً رقراقةً في قاعة الدرس! وإلّا كيف ومتى سيتعرّفون على لغتهم؟! وكيف سيحبّونها ويتفاعلون معَها وهم لا يسمعونها ولا يشعرون بجمالها، ولا يتحصّل ذلك كلّه إلّا بسَماعها من أفواه من يدرسونها محكمةً قويّةً هادرةً جذّابةً سائغةً للمتعلّمين.

إنّها لَوْثَة! نعم، أنْ تدرّس اللغة العربيّة الفصحى باللغة العامّيّة لوثة لحقت بنا، ومرض عضال يدمي القلوب، فإنّ عدم الالتزام الكامل بالحديث باللغة العربيّة الفصحى في قاعة الدرس عند تدريسها، وبخاصّة النحو أمر_ واللهِ_ عجيب غريب، بل هو مصيبة من مصائب الزمان، فمن الغريب العجيب أنْ يتحوّل علم النحو عن هدفه الأصليّ.

فما الهدف من دراسة النحو_ أصلًا_ إلّا ضبط اللسان العربيّ، بعدما طرأ عليه اللحن، أي أنّ علم النحو انطلق لهذه المهمَّة العمليّة الفعليّة، فكيف تُترك هذه المهمّة الأساسيّة، ويُذهب إلى قصر الدرس النحويّ على المستوى النظريّ الكتابيّ_ فقط_ من دون تطبيق فعليّ عمليّ[1]؟؟؟!!!

ولذا، فكما قال النبي ρ: "الْحَجُّ عَرَفَةُ"[2]، فإنّه يسعنا أنْ نستوحي من هذه المقولة الدالّة والمعبّرة قولنا في ظلال الإلحاح والتأكيد: اللغةُ الممارسةُ.. اللغةُ الممارسةُ.. اللغةُ الممارسةُ!!! فالممارسة تؤدّي إلى حضور التفاعل النفسيّ معَ اللغة الفصحى، وهو ما سمّاه بعض الباحثين بالعفويّة اللغويّة[3]، أمّا أنا، فأفضّل تسميته **بالإلف اللغويّ**، وهو ما لا يمكن للغة أنْ تستقرّ من دون حضوره والشعور به.

لا تستقيم حياة إنسانيّة من دون هذا الإلف، فالعروسان يبدأان حياتهما بالاستحياء، أحدهما من الآخر، ويحتاج الأمر فيما بينهما إلى وقت حتى يألفا بعضهما، حيث يحتاج انطلاق الحياة المشتركة بينهما إلى هذا الإلف، وهو لا يحدث إلّا بعد فترة من تلك الحياة المشتركة، أي بعد ممارستهما لهذه الحياة الأسريّة معًا، ولا يُتخيّل حياة زوجين من دون هذا الإلف الطبعيّ، ولا يمكن أنْ يعيش زوجان حياة أسريّة من دون تحقيق ذلك الإلف، وهي بدهية لا تحتاج إلى مزيد إضاءة.

فالحياة الأسريّة تحقّق هذا الإلف، وتحتاجه في الوقت نفسه، فعلاقتهما متلازمة.. لا يُتخيّل وجود أحدهما من دون الآخر، فلا بدّ أنْ توجد الأسرة؛ ثم سيحدث الإلف من بعد، ولا تستقيم أسرة، بل لا يمكن أنْ تستمر بصورة صحيّة وصحيحة إلّا بذلك الإلف الذي أشرنا إليه..

إذن، انعقاد الأسرة ووجودها هو الأمر الأوّل الذي يؤدّي إلى حضور الإلف الضروري لاستمرارها وبقائها، وكذلك فإنّ حضور اللغة الفصحى وظهورها على اللسان والالتزام بها بشكل عملي يؤدّي_ أيضًا_ إلى حدوث ذلك الإلف اللازم لقوة اللغة وحيويتها وفعاليّتها على الألسنة وانطلاقها بها..

(1) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّ 262.

(2) انظر: سنن البيهقي (رقم 9593) 173/5 والمستدرك على الصحيحين (رقم 1703) 635/1 وإتحاف الخيرة (رقم 2572) 210/3.

(3) انظر: برطولي، جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّ 271.

لذلك، ولكي تستقيم اللغة؛ لا بدّ من حدوث ذلك الإلف بين الإنسان ولغته، وهذا يحدث بعدما توجد اللغة العربيّة الفصحى على الألسنة، أنْ نتكلّمها، ونمارسها، وغنيّ عن البيان أنْ نضيف: لا يتحقّق هذا الإلف المنشود إلّا بالممارسة والدربّة والمران، وهي الأشياء المفقودة في التعامل مع النحو العربيّ في هذا الزمان..

ويكفي أنْ نشير_ أيضًا_ إلى أنّ الممارسة الفعليّة للفصحى هي أقصر الطرق وأفضلها للمراجعة الدائمة لقواعد الفصحى وحضورها الدائم الفعّال، وحضورها أهمّ أسس إنجاح إتقان الحديث باللغة الفصحى، فإنّه يصعب استدعاء هذه القواعد، وبالتالي يصعب حضورها إذا اقتصر الدرس اللغويّ النحْويّ على المستوى النظريّ_ فقط.

خاتمة

مِمّا يجول في الذهن، نقترح كلًّا مِمّا يأتي، حفاظًا على اللغة العربيّة الجميلة هذه، الكريمة التي تستحقّ مِنّا الكثير الكثير[1]، وهو دورنا على كلّ حال في إسناد حضارتنا وبناء مستقبلنا، ذلك الدور الذي ما كان إلّا فرصة لنا لنحوز الشرف والكرامة في الدنيا، والأجر الوفير يوم القيامة منه I، وهذه المقترحات هي:

1. التزام اللغة الفصيحة في أثناء تدريس اللغة العربيّة، وذلك في مختلف المراحل التعليميّة، من مُدَرِّس اللغة العربيّة قطعًا وحتمًا، ومن الطالب تجرِبةً ومحاولةً، ودُربةً ومِرانًا قدر المستطاع.
2. استبدال بعض الأساليب الفصيحة بالأنماط العامّيّة، وبخاصّة بين النخب، وفي الأوساط الجامعيّة، وذلك بشكل مدروس ومن خلال خطط توضع لهذا الغرض، تُعَلِّم، وتُرَغِّب، وتُشوِّق، وتُعَزِّز، وتُتابع..
3. مقطوعات تمثيليّة على مستوًى عال من الأداء، قويّة أخّاذة لكي يقلّدها الكبار والصغار..
4. عقد المؤتمرات والندَوات والأيّام الدراسيّة لدراسة التحدّيات الحقيقيّة المتولّدة في ميدان دراسة النّحْو، بشرط أنْ يُلتزم بالحديث فيها باللغة الفصحى.
5. لا بدّ من جذب الأبناء إلى الإحساس بروعة اللغة العربيّة وقوّتها، ولا يمكن_ أبدًا_ أنْ تبدأ مسيرة النهوض للغتنا إلّا من هذه المحطّة، محطّة الممارسة والمحاولة والدربة والمران، التي تحقّق الإلف اللغويّ المهمّ.
6. الخروج من التعاطي السطحيّ معَ النّحْو، والذّهاب إلى التعامل معَه بعمق لائق، نحو التعامل معَ جواز الوجهين بإعطاء كلّ وجه إعرابيّ دلالته من المعنى، فمن الطبعيّ أنْ يحتشد النحو بالكثير من المسائل التي تبعث الحيرة في عقول الدارسين، وذلك إنّما يدلّ دلالة عميقة على التفاعل، وينبغي ألّا يكون ذلك دافعًا للتوتّر كما يحدث معَ الكثيرين من طلبة علم النّحْو، وإنّما ذلك دلالة على التفاعل والفطنة، وهل نرى غير ذلك في قول الفرّاء: أموت وفي نفسي شيء من حتّى؛ لأنها ترفع وتنصب وتخفض[2]! فلا يجوز أنْ يكون ذلك حائلًا بين الدارس للغة العربيّة والتفاعل معَها بشكل عمليّ تطبيقيّ فعليّ.
7. تعزيز هذه الجهود الرائعة والمشكورة التي ترعاها الفضائيّات الأصيلة في نشر ثقافة الحديث بالفصحى، سواء أكان ذلك في المختصّ منها بالأطفال أم في سائر المحطّات الفضائية في برامجها المتنوّعة.

(1) انظر: حسن، النّحو الوافي 4/1، 5.

(2) انظر: الكفوي، الكليّات 618 والطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة 119.

8. تشكيل جهة حكوميّة تنتمي_ مثلًا_ إلى وزارة الثقافة تأخذ على عاتقها متابعة الأداء اللغويّ الفصيح في ميادينه الخاصّة، من مدارس ومعاهد وجامعات، وفضائيّات وإذاعات في مختلف وسائل الإعلام.

قائمة المصادر والمراجع

1. إسماعيل البوصيري، أحمد بن أبي بكر (1999): إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة. تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط1، الرياض: دار الوطن.
2. الأنطاكي، محمّد (د. ت): دراسات في فقه اللغة. ط4، بيروت: دار الشرق العربيّ.
3. برطولي، سليمة (2009): جهود العلماء في الحفاظ على السلامة اللغويّة. أطروحة دكتوراة، جامعة الجزائر، قسم اللغة العربيّة وآدابها، الجزائر.
4. البيهقيّ، أحمد بن الحسين (1994): سنن البيهقيّ الكبرى. تحقيق: محمّد عبد القادر عطا. (د. ط)، مكّة المكرّمة: مكتبة دار الباز.
5. جريشة، د. عليّ محمّد، والزيبق، محمّد شريف (1977): أساليب الغزو الفكريّ للعالم الإسلاميّ. ط1، المدينة المنوّرة: دار الاعتصام.
6. الحاكم النيسابوري، محمّد بن عبد الله (1990): المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
7. حِبّان، محمّد (1993): صحيح ابن حِبّان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة.
8. الحجّاج المزيّ، يوسف بن الزكي عبد الرحمن (1980): تهذيب الكمال. تحقيق: د. بشار عوّاد معروف. ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.
9. حسن، عبّاس (1993): النّحْو الوافي. ط11، القاهرة: دار المعارف.
10. حسين، د. محمّد (1982): الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر. ط5، بيروت: مؤسّسة الرسالة.
11. الحميديّ، محمّد بن فتّوح (2002): الجمع بين الصحيحين البخاريّ ومسلم. تحقيق: د. عليّ حسين البوّاب. ط2، بيروت: دار ابن حزم.
12. الدسوقيّ، عمر (1973): في الأدب الحديث. ط8، بيروت: دار الفكر.
13. الراجحيّ، د. عبده (1993): التطبيق النّحْويّ. (د. ط)، الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.
14. الزمخشريّ، محمود بن عمر (1987): المستقصى في أمثال العرب. ط2، بيروت: دار الكتب العلميّة.
15. زهران، د. البدراويّ (2009): مقدّمة في علوم اللغة. ط1، القاهرة: دار العالم العربيّ.
16. زيدان، جرجي (1988): اللغة العربيّة كائن حيّ. ط2، بيروت: دار الجيل.
17. السامرّائيّ، د. إبراهيم عبّود (2007): المفيد في المدارس النّحْويّة. دط1، عمّان: دار المسيرة.
18. سلطاني، د. محمّد عليّ (2001): أبحاث في اللغة. ط1، دمشق: دار العصماء، دمشق.
19. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (1972): تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. ط2، القاهرة: دار التراث.
20. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (1993): الدرّ المنثور. (د. ط)، بيروت: دار الفكر.

21. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (1998): المزهر في علوم اللّغة وأنواعها. تحقيق: فؤاد عليّ منصور، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة.
22. أبو طالب المكّي، محمّد بن عليّ بن عطيّة (2005): قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد. تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي. ط2، بيروت: دار الكتب العلميّة.
23. الطنطاوي، الشيخ محمّد (1995): نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. ط2، القاهرة: دار المعارف.
24. عبد التوّاب، د. رمضان (1987): فصول في فقه العربيّة. ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.
25. العسكريّ، أبو هلال (1988): جمهرة الأمثال. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش. ط2، بيروت: دار الفكر.
26. عمايرة، د. إسماعيل أحمد (2002): المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة. ط3، عمان: دار وائل للطباعة والنشر.
27. القاضي عِياض، عِياض بن موسى اليحصبيّ (1970): الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السَّماع. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط1، القاهرة: دار التراث، وتونس: المكتبة العتيقة.
28. الكفومي، أبو البقاء أيّوب بن موسى (1998). الكليّات_ معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة. تحقيق: عدنان درويش ومحمّد المصريّ. (د. ط)، بيروت: مؤسّسة الرسالة.
29. أبو المكارم، د. عليّ (1971): تاريخ النّحْو العربيّ حتى أواخر القرن الثاني الهجريّ. ط1، القاهرة: القاهرة الحديثة للطباعة.
30. نولدكه، نيودور (1899). اللغات الساميّة. ترجمه عن الألمانيّة: د. رمضان عبد التوّاب. ط2، القاهرة: مكتبة دار النهضة العربيّة.